تاريخ ما بين السطور

مشي حالك

رمضان مصطفى سليمان

الحبس الاحتياطي

خوليو جاستوني كان يُدخل اسمه في فم المدينة كما يُدخل السيجارة في فم المدخّن: بهدوء ، بثقة ، بطريقةٍ تدَّعي أنها لا تحتاج إلى عنايةٍ زائدة. في ساو باولو ، حيث تلتقي السماء بزجاج ناطحاتٍ من المكاتب ، ويمتدُّ النهر المالي كما امتدادُ كلماتٍ منقوشة ، كان اسمه يقف كقوسٍ من نورٍ على لافتات البنوك : بنك الإصدار البرازيلي ، البنك الاحتياطي البرازيلي ، البنك الصناعي البرازيلي — ثلاث حروفٍ، ثلاث وجوه، ثلاث ثروات. وكلُّها كما يحبُّ هو أن يقول ملكٌ له وحده.

كان يجلس كعادته، ذاك الوجه الذي لا يخونُه التعب، يفتلُ طرف شاربه بنمطٍ مكرور كمن يُعيدُ قراءة خطابٍ كتبَهُ منذ زمن طويل. قال لنا بابتسامةٍ لامعة تكاد تكون عرضاً مسموحاً خلال محاكمةٍ داخلية :

« يا سيدي، أنا رجلٌ ثري جداً ، وربُّ أسرةٍ مستقِرة ومحترمة.»

ثم أضاف بصوتٍ يوسِّعُ دائرة الثقة :

« كلُّ هذه المصارف ملكي وحدي. صحيح أن النيابة العامة لا تفتأ تعلن بين الوقت والآخر أنها بصدد التحقيق معي ، ولكني أخرج في كلِّ مرة كالشعرة من العجين «.

كانت عباراته تمشي على ساقيها كما يمشي الفيلِ على السطر: بوزنٍ محسوب، وبشعورٍ عالٍ بالأمان . ولكن وراء هذا الطيران المترف من الكلمات ، كان هناك هشاشةٌ صغيرة ، فتحةٌ في قماشٍ أنيق. قال الرجل الذي يقفُ أمامه ، وعيونُه نارٌ موجهة :

« يا سيد خوليو، لست محترماً كما تزعم. أنت نصاب ومحترف تزوير ولعب في الدفاتر والتهرب من الضرائب «...

ضحك خوليو، ضحكةً كأنها أغنية قديمة في مقهىٍ مهجور:

" حتى لا أفسد لقائي بكم، لنقل إنك أصبت الحقائق في كثيرٍ من مواضعها الحساسة . المشكلة أنني محبوس احتياطياً ، وأن ثلاثةً من مشاهير قضاة التحقيق يتناوبون استدعائي من سجن الاحتياط المسمى

سجن دوبروفيتا . المحزن أيضاً أن أحدَ الثلاثة لا يقرُّ بالإفراج عني بالكفالة ، ولو كانت كبيرة. يخشون أن أفرَّ هارباً«.

في داخله ، كانت تلتهمه صورٌ أخرى . لم تكن هواجسه عن الهرب ، كما اعتاد أن يقول ، بل عن الصورة: صورةُ نفسه أمام النساء ، أمام الناس ، أمام حفنةٍ من الرجال الذين كانوا يرفعون له القبعات في حفلٍ من أعراس البنوك . كيفَ تبدو صورته إذا ما قلبت العدسة ؟ هل سيبقى خوليو الذي يلقى المزاح في الولائم ، أم سيظهرُ شبحٌ من أوراقٍ متعرّجة ودفاترٍ مُشوَّهة ؟ .

لم يُجِب. لأن الإحساس بالشهرة كان ، في رأيه ، أقوى من كلِّ برائيته أو ذنوبه . الشهرةُ بالنسبة له لم تكن إشارةَ قدرٍ؛ كانت شهادةً تُعفى من التعريفات والقيود

« أنا أستاذ في فنٍّ اسمه مشي حالك»

هكذا قال في أحد الأيام ، وكأنه يعلّم درساً في أكاديميةٍ لا وجود لها . المشيُ حالك : أن تمرَّ فوق الأخطاء كما تمرُّ فوق رقعةٍ ساخنة ، بكعبٍ مرتفع ، دون أن تلتفتَ إلى ألمٍ أو علامة.

وبالطبع ، كان للمشيِ هذا ثمنه . السجن الاحتياطي دوبرفيتا سمى له طعماً مرًّا أكثر مما يعتاد . لكنه كان مُخدَّراً برعايةٍ دقيقة ؛ طلباته مُجابة ، وموظفو السجن يصطحبونه دائماً بتاكسي أنيق ، بلا قيود الحديد في معصميه ، لأنهم يعلمون أنه ليس من النوع السوقي . رصيده في بنوكٍ خارج البرازيل يشبهُ نَفَسَه: لا يستطيع القضاء الوصول إليه بسهولة . وكان هذا ما يطمئنه ويُسيّره في المنام واليقظة.

لكنّ الصوت الذي سكب عليه الكلام المباشر عن التُّهم لم يكن مجرد اختراقٍ للمثالية ، بل كان إشارةً لمنطقةٍ أكثر ظلمة: منطقة الخوف من الكشف . الخوفُ من لحظةٍ واحدةٍ يتهاوى فيها كلُّ بناءٍ شُيِّدَ بأسياخٍ من ورق. كان يسأل نفسه بصوتٍ داخليٍ لا يسمعه الآخرون : ماذا لو أنهار هذا المسرح ؟ ماذا لو أن كلُّ الأزرار التي نقرناه بها كلٌّ أمام شهاداته انفتحت ؟ كانت الإجابة تُبرّرُ له فعلَ السرقة كما يبررُ العاشقُ خيانته : «أنا أُحافظ على الفنّ . أنا أُحافظ على الصورة «.

في طريقه إلى مكتب القاضي دي فاليز كورناكيس، كان الطريق يموجُ بذكرياتٍ من نوافذٍ زجاجية . نافذةُ البنوك تُذكّره بخطوطٍ من المال كأنها نهرٌ يسيل في الصباح . نافذةُ المنازل تُخبره بأصواتٍ بسيطة:

أطفالٌ يلعبون، نساءٌ تنادين على الخبز . هذه الأصواتِ كانت تجرُّه إلى ذكريات أمّه ، امرأةٍ منحدرةٍ من قريةٍ صغيرة

طفولةُ خوليو لم تكن فخماً، بل كانت محاولةً مبكرةً للتعلم كيف يصبح المرءُ حاكماً على المآدب . عاشقُه للمال لم يبدأ حبًّا بالمال وحده ؛ بل كان حباً لتهذيبِ الخوف ، حبّاً لتطويعِ الوحدة.

دخل مكتب القاضي وكأنها قاعةُ عرسٍ للعدالة. دي فاليز كورناكيس ، الرجلُ الصارم ، له وجه جليدي ، ومكتبٌ خشناً يعكسُ ضوءًا أخضرَ من لمبةٍ قديمة . كان خوليو يراقبُ كلَّ تفصيلة : كيفية جلوس القاضي ، طريقة فتح الدفاتر أمامه ، حتى رائحةِ الورقِ التي كانت تنبع من رفوفٍ خلف المكتب . بدا دي فاليز كمن يقرأُ كتابًا لم يُكتب بعد ، ويحاولُ أن يقرأَ أخطاءه قبل أن تقع.

قضى خوليو دقائقَ فيها مزيجٌ من الكلام والابتسام والخُطَب الصغيرة . قال للحضور: « لم أفكر أبداً في الفرار . أنا من روّادِ المدنِ التي تبني نفسها على الاستقرار . الهرب ليس لي.»

ولكن داخله كان يقاومُ فكرةَ الإفصاح ، لا لأن لديه ما يخفِي ، بل لأن الإفصاح سيعريه من الجلد الجميل الذي بناه بكفاحٍ وسرقةٍ وابتسامات . كان الخطرُ أنه إن تكلمَ فإن الناسَ سيبتلعونَهُ بعيونٍ لا ترحم.

أما القاضي، فكان يصغي كمن يستمع إلى نغمةٍ، يبحث عن صوتٍ ينكسرُ بين الكلمات. وذات لحظةٍ، حين التفت خوليو إلى النافذة ، رأى دخانَ السافانا يتلوَّى فوق المدينة كما يتلوَّى الوع د. في قناعِه المبطنِ بالثقة ، تأمل السحبَ وابتسم:

« مشواري على دخان السافانا »،

همس في صدره، كأنها تحيةٌ لزمنٍ خياليٍّ كان يملكه قبل أن يصبح ملك مالٍ وقروض . كان هذا الهمسُ ترديداً لسرٍ عرفه منذ الصغر: أن المالَ ، مثله مثل الدخان ، يطفو ثم يتبدد. وما يبقى بعد الدخان ليس إلا السوط الذي تركه وراءه.

حين انتهت الجلسة ، وقف خوليو وراح يفتشُ عن كلمةٍ تُطهِرُه . لم يجد. فالتفت إلى نفسه كمن يودعُ صديقاً قديمًا:

ربما لن أتغير . وربما لم أخُطئ . وربما كلّ شيء مبالغٌ فيه.»

في داخله، كانت قناعةٌ عميقةٌ أن التاريخ سينصفه ، وإن لم ينصفه التاريخ ، فصورته على لافتات البنوك ستبقى تشهدُ له بابتسامةٍ بلا دموع.

خرج من المحكمة، والهواءُ يعضُّ خديه ببرودةٍ لطيفة. في الشارع ، رأى أطفالاً يلعبون، بائعَ خبزٍ يصرخ ، امرأةً تحملُ رضيعاً . لحظةٌ بسيطةٌ أعادته إلى أصل الأشياء : الناس يبنون مدناً ويأكلون خبزها ، والمصارفُ تُؤثِّثها بأرقامٍ . خوليو لم يهرب ، لم يتراجع . كان يسيرُ على دخانٍ ، يمشي حالكاً كما فعلَ طوال حياته: لا يعبأ إلا بصورةِ البذخ . وفي قلبه ، لم يكن يعرفُ إن كان الشعور بالخجل سيُزَوّرُ دفاتره أم سيمنحهُ بعضَ الإنسانية التي دائمًا كان يختصرها في لقطةٍ أوضح من بطاقةٍ بنكية.

وهكذا، بينما عادت المدينة لتدور في فصولها القديمة ، بقي خوليو واقفاً بين مسرحٍ وذاكرةٍ ، يفتشُ عن كلمةٍ واحدةٍ قد تسنده : كلمةٌ ما بين الاعتذار والانتصار. لكنه ، في النهاية ، اختار أن يعود إلى داخله ، إلى دفاتره ، إلى مشيه على دخانِ السافانا.

"سيجار الهافانا الأخير"

كانت شمس أكتوبر تختبئ خلف غيوم ساو باولو الثقيلة، والمدينة تغتسل بمطرٍ خفيفٍ لا يكفّ عن الهطول ، كأنها تغسل ذنوب أبنائها دون جدوى.

في تلك الساعة الكئيبة ، كان **خوليو جاستوني** ، المصرفي الكبير الذي عرفته المدينة بكرمه وولعه بالمسرات ، يدخل إلى مكتب القاضي **دي فالير كوزناكيس**.

رجلٌ جامد الملامح ، كأن وجهه من صخرٍ جُبل على الغضب ، لا يبتسم ولا يعرف الرحمة.

وراءه شرطيان يقفان في ردهة النيابة — **كارلوس أرناز** و**ماستاس فيرخيوس** — فقيران متواضعان من أبناء أحياء عام 1922 البرازيلية ، لكنهما يحملان في عيونِهما بريق كرامةٍ عنيدة لا يبهتها البؤس.

كانا يدخنان سيجارين من نوع " هافانا " الثمين ، ووجهاهما ينعمان بصفاءٍ مؤقتٍ لا يمنحه سوى الدخان اللذيذ لمن أنهكه التعب.

قال **أرناز** وهو يتنهد برضا:

" هدية من الأستاذ الكبير خوليو جاستوني ، الرجل الذي يعرف كيف يجعل من السجن مكانًا يُحتمل".

ضحك زميله **ماستاس** وأجاب:

" إنه لا يبخل علينا بشيء ، ونعرف أنه كريم، لكننا نرفض المال... غير أن سجائر الهافانا ؟! من ذا الذي يرفض سيجارة تذيب التعب في صدره ؟" .

ابتسم أرناز بخبث:

" بل إنكما لا تفرحان إلا حين تتعطل قضيته ، كي تظل السجائر تتدفق من يده السخية "! .

ثم صمت قليلًا ، كأنما فكر في مصيره لو كان مكان جاستوني ، وقال متأملًا:

" رجل كريم، رغم أن التهم التي تحيط به تجعل الشرفاء ينفرون منه ، لكنه يعامل الجميع كما لو كانوا أصدقاءه القدامى ".

ردّ ماستاس بابتسامة عريضة :

" السيدة زوجته تتكفل بكل نفقاته ، حتى طعامه يأتيه من أرقى مطاعم ساو باولو . ومع ذلك ، سمعت أنها بخيلة لا تحتمل سخاءه ، وقد قررت الطلاق بعد خروجه من السجن ".

قال أرناز في فضول:

" تطلّق ثريًا مثل جاستوني ؟ أي امرأة تفعل ذلك ؟ "

أجاب زميله:

امرأة ذاقت الخيانة ، وملّت التمثيل. في آخر زيارة ، صرخت في وجهه أمام الجميع::

"لن أدفع بيزو واحدًا من أجلك"!

سكتا لحظة ، وراح المطر يضرب الزجاج بقوة كأنه يصفق لسخريتهما من مصير الأغنياء.

قال أرناز أخيرًا :

" ها هو يخرج من مكتب القاضي كوزناكيس "!

رفع رأسه ، ورآه قادمًا بخطواتٍ متزنة ، وبسمةٍ غامضة على وجهه.

كان كمن خرج لتوه من قبرٍ رأى فيه النور للمرة الأولى.

قال ماستاس في حماس:

" يبدو سعيدًا! خيرًا يا أستاذ خوليو ؟ "

همس جاستوني بصوتٍ مرتعشٍ يحمل مزيجًا من الدهشة والنشوة:

" الحرية يا أحبائي... أخيرًا! الإفراج بكفالة... صحيح أنها ضخمة، لكن الحرية لا تُقدّر بثمن " ! .

سأله أرناز:

" هل دفعت الكفالة ؟ "

ابتسم جاستوني ابتسامةً فيها شيء من المكر:

" أمهلني القاضي حتى الغد... عليّ أن أجمع المبلغ، ولن أعجز ".

ثم أشار إليهما:

" هيا، لنعد إلى السجن حتى صباح الغد ، لكن اليوم... اليوم أشعر أن الحياة قد عادت إليّ "! .

ركبوا التاكسي ، وكان المطر قد اشتدّ حتى بدا كأنه يطرق على سقف السيارة طرقًا جنونيًا.

أخرج جاستوني علبة سجائر مذهبة ، ووزّعها على رفاقه كمن يوزع البركات.

قال مبتسمًا:

" هدية ما قبل الحرية. زوجتي جاءتني بها بالأمس ، لكنها حين سمعت عن الكفالة قالت لي ببرود:

"*لتّبر أمورك وحدك*".

سأل أرناز وهو ينفث دخان السيجار برضا:

" كم هي الكفالة؟ "

" مائة ألف بيزوس " .

شهق ماستاس مذهولًا:

" يا إلهي ! ومن أين ستحصل على هذه الثروة ؟ حساباتك مجمّدة وبنوكك الثلاثة تحت التحفّظ "!

ضحك جاستوني ضحكة عالية ، تملؤها الثقة والإنكار في آنٍ واحد:

" لا تشغل بالك ، يا عزيزي ، السماء لا تُغلق أبوابها في وجهي. هناك دائمًا طريق ما، حتى لو بدا مستحيلًا ".

ثم أردف وهو يطل من نافذة السيارة على الشوارع المبتلة:

" كل ما في الدنيا قابل للبيع... حتى الخلاص ".

دخّن الجميع في صمت ، إلا السائق، الذي بدا عليه الارتباك وهو يسمع حديثهم.

وفجأة التفت إليهم قائلًا:

" أستاذ جاستوني ، ألا ترى أن تدبر أمر الكفالة قبل العودة إلى السجن ؟ هناك ، لن تكون حرًّا كما الآن ".

رمقه جاستوني بعينين تلتمعان بدهاء، ثم قال :

"ذكيّ أنت أيها السائق ! لم يفتني ذلك . سنذهب إلى صديقي القديم **خوان ألبيرتينو** في شارع سيغورا ، صديق الطفولة، الرجل الذي كان يقول دائمًا *:أموالك أموالي*".

وافق الشرطيان بحماس طفولي:

" إلى سيغورا إذن "!

بينما كان التاكسي يشق طريقه وسط المطر ، سرح جاستوني في أفكاره.

كم كان يؤمن بالصداقة ، بالكرم ، بالثقة التي لا تخون . لكنّ شيئًا داخله كان يتهشم ببطء ، كأنه يسمع همسًا من أعماق روحه يقول:

" لا أحد يعطيك دون مقابل يا خوليو ، لا أحد ".

وصلوا إلى شارع سيغورا رقم 16.

هبط جاستوني بخفة رجلٍ ما زال يظن أن العالم يدين له بشيء من الاحترام ، وصعد الدرج بخطواتٍ متلهفة.

مرت ساعة.

عاد وجهه شاحبًا، كأنه تلقّى صفعة من القدر.

قال في خفوتٍ محمّل بالمرارة :

" رفض أن يقرضني سنتيمًا واحدًا... صديق الطفولة، الذي كنت أطعمه في المدرسة من طعامي ! قال لي : الأوضاع صعبة يا خوليو ، لا أملك مالًا فائضًا . يا لها من أخوّة كاذبة ، أخوّة قابيل وهابيل ".

نظر إليه أرناز في حيرةٍ لا تخلو من التعاطف:

" وماذا ستفعل الآن ؟"

" أعود إلى السجن. سأطلب من زوجتي أن تتوسّط لدى بعض الأصدقاء. رغم كل شيء ، ما زالت تملك لسانًا لا يردّه أحد ".

قال ماستاس في خيبة:

" تعني أننا لن نحظى بسيجار جديد اليوم ؟ " .

ضحك جاستوني ضحكةً قصيرة حزينة:

" بل نحظى بعشاء فاخر قبل العودة ، فمن يدري؟ قد تكون آخر وجبةٍ أتذوقها خارج جدران السجن ".

نظر إليه أرناز بدهشة:

" ألن تؤجل العودة حتى تدبّر الكفالة ؟" .

قال في سخرية مريرة:

" الوقت تأخر ، والموظفون يغادرون مكاتبهم عند الواحدة. الآن الواحدة والنصف. لقد فات الأوان... كما فات العمر ".

ثم التفت فجأة نحوهم ، وقال بلهجةٍ مرحة كأنما نسي كل شيء:

" ألا تشعرون بالجوع ؟ تعالوا نذهب إلى مطعم *الفأر الميت* ! إنه أشهر مطاعم ساو باولو ، طعامه يليق برجال المال والفضائح "! .

قال ماستاس في ضحكٍ صادق:

" لكن الحساب ؟ " .

" اطمئنوا، الجيب عامر ، وزوجتي تتكفل بكل النفقات حسب الاتفاق ! أنتم ضيوفي ، وأنت أيضًا أيها السائق الكريم "!

انطلقت السيارة وسط ضباب المطر ودخان الهافانا، كأنها تغوص في حلمٍ بائسٍ بين الجريمة والترف.

في داخله كان **خوليو جاستوني** يشعر أن العالم كله يسير نحوه ثم يبتعد، كأن الحظّ يسخر منه للمرة الأخيرة.

سمع صوت المطر يمتزج بدقات قلبه ، وصوتًا خافتًا من أعماقه يهمس:

" أكنتَ بريئًا يا خوليو؟ أم كنت فقط أبرعَ من غيرك في التزوير ؟"

لم يجب أحد.

الدخان غطّى الوجوه ، والسيارة اختفت في شارعٍ طويلٍ يغسله المطر.

ربما لم يكن هناك " إفراج بكفالة..."

ربما كانت تلك الرحلة إلى مطعم " الفأر الميت " هي آخر نزهةٍ لرجلٍ ظنّ أن المال يصنع له بابًا إلى السماء ، لكنّ السماء كانت قد أغلقت أبوابها منذ زمن.

خديعة في شارع زامورا

في مطعم **الفأر الميت**، أحد أشهر مطاعم **ساو باولو**، كان المساء يهبط ببطء على المدينة الكبيرة ، بينما الأنوار المتلألئة تنعكس على الزجاج اللامع كنجوم سقطت من السماء إلى الأرض . في هذا الجو الفاخر الممزوج برائحة اللحم المشوي والنبيذ المعتّق ، دخل **الأستاذ جاستوني**، المصرفي الكبير الذي اعتاد أن يُستقبل حيثما ذهب بمهابةٍ واحترامٍ . وقف النادلون على استقامة ، وانحنت الرؤوس ترحيبًا بالرجل الذي لا يُرد له طلب.

جلس جاستوني مع ضيوفه الثلاثة إلى الطاولة المستديرة المخصصة لكبار الزوار ، وتناولوا الطعام بشهية واحتساءٍ متأنٍ للنبيذ، كما لو كانوا يودّعون آخر عشاء لهم على هذه الأرض. ومع كل لقمة ، كان في وجه جاستوني شيء من القلق المستتر ، كظلّ غيمة تمرّ على صفحة البحر ، يحاول أن يخفيه بابتسامةٍ مصطنعةٍ كلما رفع الكأس إلى فمه.

وحين انتهى العشاء ، نهض ببطءٍ ووقار ، ألقى نظرة قصيرة على الحاضرين ، ثم أخرج محفظته الجلدية الفاخرة، ودفع الحساب بسخاءٍ لا يليق إلا برجلٍ اعتاد أن يشتري الصمت بالمال . ترك **إكرامية ضخمة** لكل عاملٍ في المطعم ، حتى بات اسمه همسًا متألقًا في أروقة المكان.

في الخارج ، حيث كانت السيارات الفارهة تصطف، اقترح السائق ، وهو رجل بدين يرتدي معطفًا رماديًا منفوخ الأكمام:

ماذا لو تابعنا الجولة يا سيدي ؟ نجمع الكفالة من أصدقائك واحدًا بعد الآخر. كلٌّ يدفع ما يستطيع ، وبذلك تكون حرًّا مع الصباح.

أعجب الاقتراح جاستوني ، فابتسم وقال:

فكرة لا بأس بها، ولكن هل يوافق صديقانا أرناز وماستاس ؟ لا أريد أن أُعرضهما لتأنيب ضباط سجن دوبروفيتا إن تأخرنا عن الموعد المحدد.

ردّ **أرناز** وهو شرطي معروف بابتسامته الباردة:

لا تقلق يا أستاذ جاستوني ، الضابط صديقي ، ثم إنك أغدقت علينا بأفضالك ، فلا بأس إن تأخرنا قليلاً .

وأضاف **ماستاس** بنبرة عملية :

إذن فلنبدأ الجولة فورًا . إلى أين أولًا ؟

قال جاستوني وهو يعدّل نظارته الذهبية :

إلى شارع لابريه، ثم إلى شارع زامورا .

+

خرجوا معًا إلى ليل ساو باولو الثقيل ، الممزوج برائحة المطر والدخان ، وتوقفت السيارة أمام أحد المنازل القديمة في **شارع لابريه** . دخل جاستوني وهو يحمل ابتسامته المحفوظة للأوقات الحرجة، لكنه ما لبث أن خرج بعد ربع ساعة ، متجهم الوجه، كمن خاب ظنه في الناس جميعًا . قال بمرارةٍ فيها شيء من الفلسفة :

ألم أقل لكم؟ لا أمل كثيرًا في الأصدقاء حين يتعلّق الأمر بالمال... إلى شارع زامورا إذن. أظن أن أرليتا لن تخيب أملي.

ارتسمت ابتسامة ماكرة على وجه الشرطي أرناز وهو يسأله :

أرليتا؟ صديقة قديمة أم جديدة؟

ضحك ماستاس بإعجابٍ خفي:

لعلك تعني أرليتا روكلوز ، مغنية ملهى جان تليماكوس؟

قال جاستوني في تواضعٍ مصطنع :

هي بعينها... لقد أهديتها من قبل وزنها مجوهرات ، أعتقد أنها ستسدد جزءًا من الدين القديم... إلى شارع زامورا يا أصدقاء .

+

توقفت السيارة أمام بناية ضخمة تطل على شارع زامورا، واجهتها تعكس وهج الغروب . صعد جاستوني بخطى واثقة ، وبقي الثلاثة في السيارة ينتظرون. مرّت نصف ساعة، ثم ساعة، دون أن يعود.

قال ماستاس وهو يضرب المقود بعصبية:

يبدو أن صحبة أرليتا راقت له، ونسي أمرنا .

أجابه أرناز، وقد بدأ القلق يتسلل إلى صوته:

ننتظر نصف ساعة أخرى ، إننا الآن في آخر النهار.

مرت ساعة أخرى ، وتحوّل الصبر إلى ريبة . نزل أرناز متجهمًا نحو البوابة وسألها :

أرليتا روكلوز... في أي طابق تسكن ؟

نظرت إليه المرأة العجوز من خلف نظارتها السميكة وقالت بثقةٍ خالية من المجاملة :

سيدي الشرطي ، لا أحد بهذا الاسم في البناية . أعرف سكانها جميعًا ، ويمكنك أن تطرق أبوابها واحدًا واحدًا لتتأكد.

لم يصدقها أرناز. أخذ يدق الأبواب شقةً تلو الأخرى ، يسأل عن *خوليو جاستوني وأرليتا روكلوز* ، لكن لا أحد في البناية يعرفهما. ومع كل بابٍ يُغلق بشدة ، كانت الحقيقة تقترب كطلقةٍ بارود باردة ، تصيب عقول الشرطيان المخدوعان ، المغروران في جاستوني .

وأخيرًا قالت له البوابة وهي تشير بإصبعها نحو الممر الطويل :

سيدي، للبناية مدخلان... أحدهما على شارع زامورا، والآخر على شارع أبارتادو. من المحتمل أن صديقكما دخل من هذا الباب وخرج من الآخر.

تجمّد أرناز في مكانه . شعر بالدم يهرب من وجهه ، وكأن كل شيء اتضح فجأة. التفت إلى زميله وقال بصوتٍ متقطع:

لقد خدعنا... لقد فرّ هاربًا .

+

في تلك اللحظة، كان السائق يراقب المشهد من بعيد بابتسامة خبيثة . أدرك أن اللعبة انتهت ، وأن ما تبقى ليس سوى حسابات لم تُدفع . اقترب منهما ببطء وقال بجفاءٍ قاطع:

أيها الساد ة، لا مفرّ من أن أُسلّم السيارة لصاحبها ، لكن قبل ذلك أريد أجرة المشاوير... ثمانمائة بيزوس. لقد رافقتكم منذ الظهر ، والوقت مال كما تعلمون.

اعترض أرناز محاولًا المساومة

لكن هذا كثير...

قاطعه السائق بحدةٍ وهو يلكزه في صدره:

لا شيء اسمه لكن في العمل، ثمانمائة بيزوس... وإلا أخبرت ضابط السجن كيف ضيّعتم النصّاب بأيديكما.

نظر الشرطيان إلى بعضهما في صمتٍ ثقيل ، ثم دفعا المال على مضض.

خذ السائق النقود وهو يبتسم ابتسامة المنتصر ، واستدار نحو الشارع المزدحم ليختفي وسط ضجيج السيارات وضوء النيون.

أما **أرناز** و**ماستاس** فبقيا واقفين في العراء، أمام البناية المهيبة التي ابتلعت الرجل كوحشٍ من الأسمنت والزجاج. كان الغروب قد ألقى آخر خيوطه على وجهيهما المتعبين، ومعها شعر كل منهما أن شيئًا في داخله انكسر — شيء أعمق من الغباء المهني وأقسى من الخسارة.

قال ماستاس بصوتٍ أقرب إلى الهمس :

كيف يمكن لرجل أن يسرقنا بابتسامة؟

أجابه أرناز بعد صمتٍ طويل:

لأنه لم يسرقنا فقط... لقد عرفنا كما يعرف الصياد غباء فريسته.

ثم أدار وجهه نحو الغروب الذي بدأن يسيطر على السماء ، كمن يحاول أن يتلمّس معنى ما حدث لهما. في داخله كان يسمع صوت جاستوني يضحك عليهما من بعيد، ضحكة طويلة تتردد في رأسه كصدى في بئرٍ فارغة ، أ حقا استطاع أن يخدعنا .

ذلك المساء، حين أُغلقت أبواب البناية وبدأت الأنوار تُطفأ ، أدركا أن **العدالة في ساو باولو لا تُقاس بالقانون ، بل بالقدرة على الخداع**.

الفرار إلى الظل

في ردهات العدالة حيث تتقاطع العملات مع القدر ، جلس خوليو جاستوني — رجل المصارف الثلاثة — كمن يُطالَبُ أن يدفع ثمن خياله أكثر من ثمن ذنبه. كانت كتابات التحقيق ضده تهمّش ذاكرته كما لو أنها تكتب عليه حكما مسبقا:

" المتهم محبوس احتياطياً ".

ولم يكف خوليو عن التكرار بصوت ينزف استعلاءً وغضبًا مختلطًا بمرارةٍ دبلوماسية:

» و هل هناك تحامل أكبر من أن تحرمني من التصرف في أموالي ، وفي إدارة مصارفي ؟ أن أُحبَس رهن التحقيق في سجن الاحتياط دولروفيتل ؟ لقد طالبت مرارًا بالإفراج بكفالة ، والقضاة الثلاثة برئاسة الأستاذ دي فاليز كورناكيس يرفضون مناقشة الفكرة «.

تجلّت نبرة الشكوى في حركات يده ، كمن يحاول أن يردم شبرًا من البحر. رأى خوليو في رفض القضاة إهانةً لسيادته المصرفية ، وكأن القانون لا يفهم أن المال حكمةٌ أيضاً ، وأن من يمتلكه له حق أن يدير مصائره.

في تلك اللحظة، يتذكر القارئ مشهداً آخر: خروج خوليو من مكتب القاضي مبتسماً بخبثٍ مدسوس، يخاطب حارسيه البسطاء — الشرطيين ماستاس وفِرْجيوس — بكلامٍ مزيّفٍ يعبئ وجوههم بالرضا:

» فرجت، إفراج مؤقت بالكفالة «.

ومن ثُمَّ حدث ما كان من الخيال أشد من الواقع ؛ فرارٌ مفاجئ ، واختفاءٌ كأن الهواء ابتلعه. ترك خلفه ماستاس وغرابه من الندم والذنب ، وترك أرناز يرتجف تفكيرًا بعاقبة الفصل . رأى كل واحدٍ فيهم امرأةً قد تطلب الطلاق أو منزلاً يسقط من يده.

ارْتَشفت السردية صباح السجن كما تشرب فنجانًا باردًا: الضابط نائب مدير السجن ، خوزيه لوزاريس ، عينٌ تحكم لا تَنالُ منها العاطفة

شيئًا ، ومع ذلك كان في صوته بضعة أسطرٍ من إنسانيةٍ باهتة . تلا محضر التحقيق بصوتٍ متدفقٍ كمن يعلن نهاية مأساة:

" ترفض هيئة التحقيق الإفراج عن المتهم بالكفالة ، ويتم تجديد حبسه الاحتياطي لثلاثة أشهر أخرى ".

وهنا عادت الكوابيس إلى أرناز وماستاس: رشاوى ، عيون زوجاتٍ خائنة ، وصحبة الميناء التي قد تؤويهما بعد الفصل — مهنٌ لا تليق بضباطٍ ؟ أم أنها الحقيقة الوحيدة المتبقية ؟

تسلّل تيار الأفكار داخل عقل خوليو كما يتسلّل دخان سيجار الهافانا في غرفة معتمة: صورة المصارف الثلاثة ، خيوط البنوك المعلقة بحجم العالم ، أسماء العملاء ، أرقام الحسابات كإيقاعاتٍ صغيرة في صدره . كان يسمع صدى كلمات كورناكيس كما لو أنها رصاصاتٌ صغيرة تُثقبُ جلد الذاكرة:

" الكفالة معناها الإفراج المؤقت ، والإفراج المؤقت معناه فرارك إلى أمريكا "...

تذكّر الباخرة التي عبرت المحيط ، تذكّر حساباتٍ تُنقل بين بنوكٍ صامتة . في مخيلته ، رأى خريطةً تُضيءُ المسارات ، ووجوه رجالٍ تتغير أسماءهم بأحرفٍ سريعة . لم يكن خوليو يهرب لأنّه جبان ؛ كان يهرب لأن الهروب هو آخر طقسٍ يحفظ له بقايا إمبراطوريته.

لكن وسط هذا التيه، تبرز امرأةٌ — زوجته — صورتها كظلٍ يتشوَّه بين الشك والغيرة . رأى في الخفاء أجزاءً من حقيقتها : ليست مجرد زوجة سوقية كما وصفها الآخرون ، بل كائنٌ بجروحٍ وشغفٍ ، تقايضت معه الألقاب والثروات مقابل بقايا حنانٍ قدّمها لها خوليو عندما كان لا يزال مولعًا بالمغامرة.

عندما اقتحم الضباط بيت الزوجة ، لم تنحني أمام الأسئلة ، بل ضحكت ضحكةٍ حادة ملؤها الاحتقار:

» ماذا أخفي ؟ هل تعتقدون أن أسماء صديقات زوجي خافية عن ساو باولو ؟ لقد أنفق كل دخله على علاقته الشائنة — بينهن زوجات رجالٍ محترمين شكلاً لا موضوعًا «.

صوتها لم يكن صرخة مدمرة فقط ؛ كانت منطقًا باردًا يكسر أغلال النفاق . لم تطلب الشفقة ، بل استباحت التحكيم لصالح قوتها ؛ لم تكن تتهرّب ، بل كانت تقوم بحسابات الانتقام.

الضابط، في سعيه لاسترداد المجوهرات التي سرقها خوليو ، أراد أن يجعلها شريكة في الملاحقة : "سنعيده إليك إذا ساعدت الشرطة بذكر بعض أسماء عصافير الليل ".

فأجابته بجمودٍ أصعب من الجليد ، كأنما تاريخًا كاملاً من الخيانات يعبر من بين شفتيها.

ماستاس ، الذي أدمن سجائر الهَفَانا، وجد في النعيق الأخير فرصة للتوبة أو الاعتراف . أرناز ، وقد ارتسمت عليه علامات الرجفة ، تمثل له السؤال الأكبر: ماذا بعد إذلال الطرد ؟ كيف تُنهى حياةٌ تقضيها في ظل القانون إلى التسول المهين بحكمة الميناء ؟ .

يؤدي الحوار بينهما وظيفة موسيقية : كلمات قصيرة تتقاطع مع خوفٍ طويل . وداخل هذا الحديث ، يعرف القارئ أن الحياة عندهم ليست مسألة شرفٍ فقط ، بل شبكةٌ من علاقاتٍ اجتماعية واقتصادية بائسة تُرغم الرجال على ترتيب مجرى الحياء.

عند مفترق الطريق ، حين تسارعت خطوات رجال الشرطة إلى بيت الزوجة ، تبدو المدينة نفسها شاهدة ؛ الشوارع تهمس بأسماءٍ ، والميناء يبتلعُ الأصوات. في هذا المشهد، تغدو المدينة شخصية ثانية : عظيمة ، متآمرة ، تحمل في شقوقها أسماء اللصوص والمحبوبين على السواء.

الزوجة توسّم السخرية في نوايا الضباط . تقول بصوتٍ مرتفعٍ كخدشٍ على زجاجٍ قديم:

» أرجوك الأسماء، الأسماء... إن ظننت أنّي سأساوم ، فأنتَ مخطئ. أنا من مرشدات الشرطة ؟ مع السلامة وإلا شكوتكم إلى رؤسائكم «.

هنا تتلاشى الاستراتيجية الشرطية أمام جبروت المرأة التي لا تخشى إفشاء أسرار لا تخصها فحسب ، بل تخص كيان المجتمع المتكور على فسادٍ طويل.

تتبدّى في ثنايا القصة أسئلةٌ أخلاقية : هل المال قوة تبرّر تجاوز القانون ؟ أم أن القانون ، ببروده، يحاول استرداد توازنه أمام جموح النفوذ ؟ خوليو يرى العدالة كقذفٍ شخصي أمام قراراتٍ متحيزة . الزوجة ترى العدالة لعبة أسلحة : تُستعمل لإذلال من أحرزوا عليها حظها من الحياة.

وفي قلب هذه المشاهد ، يقف القارئ أمام مفارقة قديمة — أن يَصيرَ المرءُ إمبراطورًا في مصرفٍ وأن ينهار كإنسانٍ في زنزانة.

تغلق القصة أبوابها على صورةٍ تتبدّد في ضباب السجن : خوليو يقف عند نافذة صغيرة ، يحدّق في المدينة التي بناها وأهدرها . في داخله أمواج من الأسئلة ، وصوتٌ خافتٌ يقول له:

" لم تُسرق البنوك منك ، بل سرقتك أنتَ منها ".

والقارئ يبقى مع هذا الشك: هل كان فرار خوليو هروبًا من العقاب أم هروبًا من ذاته ؟

القصّة تنتهي بذات النبرة التي بدأت بها — شجنٌ منسي ، دمعٌ محجوب ، وصوت قانونٍ صامت . ولكن بين طيات الرواية ، ما زال هناك مكانٌ للحكاية: للندم ، للانتقام ، ولخيطٍ واحدٍ قد يعيد ترتيب مصائر الرجال والنساء في هذه المدينة التي لا تنام على حق .

الضابط و زوجته

في المدينة التي بلعتها البُنايات العالية وصياح السيارات، حيث تشرق شمس ساو باولو على وجوهٍ اعتادت أن تُخادعها الأضواء ، عاد الضابط خوسيه من عمله في المساء مُنهكاً . كان في خطواته ثِقل يومٍ لم تُطفئه حتى نِهايات السماء ، فقد علّق قلبه في مطاردة رجلٍ كان يومًا ما اسمه يتردد في الملاهي والنوادي كأصواتٍ متنافرة : نصّابٌ بارع ، ساحرٌ بالكلام ، يُلبس الرجال عُطورَه ويُبهر النساء بلمعانِ مجوهراته. الآن ، لا أثر له ، وكأن المدينة ابتلعته.

فتّش خوسيه دورًا لا حصر لها من بيوت النجمات ـــ اللامعات وغير اللامعات ، وسمع في كل ركنٍ سخرياتهن التي لا تخفي قسوة الواقع . كانت تلك السخرية ستاراً ، لكنها في باطنها شهادة : على مرارة النفوس ، وعلى كسر القيم عندما تبيعها الحاجة. كل نجمة ، وكل خادمةٍ تهمس ، أعطاها الرجل هدايا ثمينة كأنها جزيرة صغيرة تمنحها في محيط من الفقر والعجز . وعند كل بابٍ يطرقُه ، يزداد الخوفُ لديه : ربما يخفيها أحدهن إلى أن تمرّ رياح العدالة ، أو ربما يركب باخرةً مختفية إلى أمريكا.

في المساء، دخل خوسيه داره، وحمل معه تعب المدينة وكآبة لا تبدو في عينيه عندما يُطل عليها الآخرون. في غرفة النوم ، كان الظلام مريحًا - كغطاءٍ يتيح للفكر أن يطفو - وزيلا، زوجته الحانية ، جلست بجانبه كقديمة عهدٍ هي لا تكلّ عن إظهار الحنان . كان حديث الوسادة يبدأ من حيث تنتهي الشوارع : كلامٌ مُرهَق ، أنفاسُ قلقٍ يلتصقان كما يلصق الليلُ الدفءَ بالأجساد.

قالت زيلا :

كنت تقول دائمًا أن ذلك الرجل ودود، كريم، لطيف... لا يقدم على شيء مهين مثل الفرار من العدالة. خُدعنا جميعًا.

كانت كلماتها بسيطةٍ من حيث التشكل ، لكنها محشوةٌ بسيفٍ بارد : انتقاد لا يوجّه إلى خوسيه فحسب ، بل إلى المدينة بأسرها ، إلى علاقاته التي تَشكّلت بين الفقر والمراوغة ، بين الحاجة والفساد. راقبتها عيناه ، وفي داخله تفتّت شعور الغضب والذنب معًا. غضبٌ لأنه بدّل دوره من ضابطٍ صارمٍ إلى ممتحنٍ ذاتي لا يملك الآن سوى سؤالٍ هامٍ :

هل زوجته تخفيه ؟

أجاب وهو يحاول أن يجعل صوته هادئًا أكثر ممّا هو :

لم يفتني هذا ؛ رتبتُ رقابة لصيفةٍ على الدار . ولكن أخشى... أخشى أن يكون قد هرب إلى أمريكا. استطاع أن يهرب بمبلغ كبير - ستة عشر مليون بيزو وثلاثة ملايين دولار - دفعةً واحدةً، كما لو كان يشتري لنفسه طريق الفرار .

نظرت إليه زيلا ، وعيناها تشعّان بمزيجٍ من الشفقة والدهشة:

مثل هذا الرجل... يشتري ذمَمَ ربابنةِ كلِّ سفنِ العالم؟

تساءل في نفسه عن صيغ العالم: عن أناسٍ يُشترون الحرية بالمال ، وعن أناسٍ تُباع لهم القيم الصغيرة كما تُباع السلع في السوق . كان يُفكّر كيف أن المدينة تُحوّلُ كل شيءٍ إلى سلعة : المحبة ، الأمان ، حتى الوفاء - فكل شيء له سعر. والآن، يراه يتحرّك في رأسه كمشهدٍ سينمائي : الباخرة، البحر ، غرفةٌ مُظلمةٌ فوق سطحها ، جوازٌ مُختوم ، ابتسامةُ رجلٍ حرّ.

قالت زيلا بصوتٍ مُنخفضٍ :

أ أخبرت زوجته أنه يهدي صديقاته المجوهرات بلا حساب. فهل تتوقع أن تُخفي إحدى الفتياتِ من تُحب؟

ذلك الامتداد الصامت الذي أعقب كلامها كان مثل مسافة بين رصيفين ، حيث وقفت فيهما حياةٌ بأكملها . تذكّر خوسيه ، بينما النوم يداعب جفنيه وتتراءى له لقطات التحقيقات الماضية ، أن النساء اللواتي فتّشهنّ ليسَّن مجرد شهودٍ بل رُقَع ملوّنة في نسيج المدينة. كان كلّ منهن حكاية : طفولةٍ قطعت على عجل ، حلمٌ مات لحظة شراء خاتم ، أو طموحٌ تحول إلى بريقٍ زائف. وعليه - رغم خيبته من خداع الرجال - كان يدرك أن مهمته ليست فقط القبض على رجلٍ هارب ، بل استعادة بعضٍ من كرامة من تضررن.

أغمض عينيه لحظة ، لكن أصوات الشوارع لم تذعن للهدوء . رنّت في رأسه أسئلةٌ لا تقبل الإجابات السريعة : لماذا يُصرّ الناس على تصديق السرديات اللامنهجية ؟ لماذا يراوحون في طقوس الخداع ؟ هل لأن الحقّ في المدينة نافذةٌ صغيرة ، أم لأنهم يتوقون لسرابٍ سريع؟

تجلّت له صورةٌ قديمة : أول مرة اقتنع فيها بالخدمة العامة ، عندما كان ضابطًا شابًا ، قلبه مملوءٌ بإيمانٍ عتيقٍ بأن القانون سيُصلح كل شيء. واليوم ، وهو يقف بين سِطورِ ليلٍ طويلٍ ، يخال له أن القانون صار لعبة تبادلٍ بين رجالٍ بأسماءٍ وهمية . التفّ حوله عالمٌ من تناقضاتٍ تُخفي الحقيقة في ثنايا الثمن.

زيلا أمسكت بيده؛ كان لمسها بسيطًا لكنه صِدقٌ يخفّف عنه وطأة التراكم . قالت بحزمٍ مرهف:

افعل ما عليك ، ولكن تذكّر أنك إنسان أيضاً. لا تترك عملك يُبلعُك كاملاً.

في الداخل، دار صراعٌ بين واجبه كمُحققٍ، وبين رغبته في أن يعود إلى بيته رجلًا يستطيع أن يرى وجه أولاده بدون أن يخفيه التعب . كانت قولهَا تذكيراً بأن الحياة لا تقف عند حالة واحدة - ليست مطاردةً فحسب ، بل شايٌ على الطاولة ، ضحكةٌ طفلة ، رقبةٌ دافئةٌ تلتفّ حول كتفه.

لم يَعُد حديثهما كثيرًا ؛ كان النوم يطمس الكلمات كما تطمس الأمواج آثار القدَمِ على الرمل . مع ذلك ، كانت نوايا خوسيه واضحة وحازمة . في داخله وبرغم سهادته ، ولد تعهدٌ:

سأقبض عليه رغم كل شيء. سأعاود العمل في الصباح بلا كلل ولا ملل.

نهضت من داخله مخلوقاتُ الشك وإصرارٌ هادئ. ألحّت عليه فكرةٌ واحدةٌ: أن المدينة التي تحمي المجرمين أحيانًا - عن قصد أو عن جهل - تحتاج إلى يداً ثابتة لا تلوي على الحق . وفي ذلك المساء ، استحال التعب إلى حنكةٍ أكثر منه ضعفًا ، وإلى تصميمٍ أكثر منه استسلامًا .

ومع أول ضوءٍ، سيبدأ تحديدٌ جديد: جمعُ الأدلة ، إعادةُ قراءةِ التصريحات ، مراقبةُ المنافذ ، واستجوابُ كل من ايّدت تلك الحياة الباذخة . كانت الخطة ليست مجرد مسحٍ جسدي للمدينة ، بل أيضاً مسحٌ للقيم — للثغراتِ التي تتيح للمال أن يُحوّلَ العالم إلى سوقٍ لا يعرف رحمة.

في أركان عقله ، تلاشت صور البحر والباخرة ، وحلت محلها مساحةٌ صغيرةٌ حيث يقف الإنسان وحيداً مع قراراته. هناك ، في هذا

البُعد الأخير، أدرك خوسيه أن العدالة ليست مجرد قوانين تُنفذ ، بل أيضاً شجاعة مواجهة النفس. وأنه ، إن لم يكن هو ، فمَن سيعود ليبحث عن الحق وسط فوضى المصالح ؟

هكذا نام ، لكن عيونه كانت تفتّح حلمًا واحدًا : قبضٌ يلتفّ حول يدٍ هاربة ، وشمسٌ أخرى تشرق على مدينةٍ تعلمت أن تسأل عن ثمن كل شيء . وزيلا بجانبه ، كأنها تهمس للحياة نفسها أن تمنحه فرصةً أخرى لأن يكون الضابط الذي يطابق حلمه مع أفعاله.

وفي شرود هادئ ، بين ضجيج العالم وهدوء الغرفة ، ظل القرار في صدره كحجرٍ صغيرٍ لا يلين: سأعودُ إليها في الصباحِ ، وأحمل معها صوت الحق.

بين باروكة الخداع وعيون الضابط

أين اختفى الرجل؟

سؤالٌ يتردد بين العقول المتعبة كهمس الريح في الأزقة ، وكأنه طيف لغزٍ بوليسيٍّ لم يُكتمل . قال أحد الزملاء بنبرة الواثق:

عند واحدة من عصافير الليل ، بلا شك.

لكن السؤال الأهم : من هي ؟ وأين تخفيه ؟

لم يكن تخمينه بعيدًا عن الحقيقة . فبينما كنا نتبادل التكهنات حول مأواه المحتمل ، كانت الفنانة الشعبية **كارمن خوزيه** تُعد له طعامًا شهيًّا في مخدعها الفاخر ، بشقتها الأنيقة التي تتدلى من سقفها ثريات كأنها نجوم مدينة غارقة في الغواية . جلست أمامه بثوبٍ من الحرير الأسود ، وهي تضحك ضحكة ساخرة تخفي خلفها قلقًا دفينًا وقالت:

لقد فتّش الضابط الشقة بكل دقة ، لا أدري كيف لم يفطن إلى أنك كنت في المطبخ في ثياب الطباخة ، وعلى رأسك واحدة من باروكاتي.

ضحك **خوليو** ضحكة خفيفة كمن يستعيد لذة النجاة:

إنها لم تُمعن النظر في وجهي أصلًا، بل كادت تلامس يدي لولا أنني تراجعت في اللحظة الأخيرة.

قالت كارمن وهي ترفع حاجبها بدهاءٍ أنثوي:

خدعته الباروكة ووسامة وجهك الحليق... خاصة بعد أن أخفيت شاربك ذاك الذي كان عنوان رجولتك.

ثم أردفت وقد تبدّل صوتها من الخفة إلى الجد:

هذا لا يعني يا صديقي أنه لن يكرر التفتيش ، إنهم يشمون رائحة الخطر مثل الكلاب البوليسية.

ابتسم خوليو بثقةٍ تخفي خلفها خوفًا يتآكل قلبه ببطء:

هل يضايقك أن أبقى أسبوعًا حتى يروق الجو ؟

ارتبكت كارمن ، لم تكن تعرف أهي خائفة عليه أم منه ، وقالت في حرجٍ ممزوجٍ بحذر:

خوليو ، أرجوك، قدّر موقفي . قد تأتينا الخيانة من إحدى الخادمات ، العيون في هذه المدينة لا تنام. ثم... ثم لماذا تبقى في ساو باولو أسبوعًا ؟ لماذا لا تغادرها اليوم أو غدًا مثلًا ؟

سحب نفسًا عميقًا وقال بصوتٍ خافتٍ ينضح باليأس:

إنهم يحاصرون الميناء. الربّان الذي اتفقت معه لن يصل قبل أربعة أيام ، ثم نغادر بعدها بثلاثة أخرى . لا خيار لي سوى الاختباء أسبوعًا كاملًا ، وإلا وقعت بين أيديهم.

صمتت كارمن قليلًا ، كانت عيناها الزمرديتان تبرقان بشيءٍ بين الشفقة والرفض . ثم قالت وهي تحاول أن تخفي اضطرابها خلف كلماتٍ متزنة:

خوليو، لا تظن أنني جاحدة. لحم كتفي من خيرك، وكل ما أملك من مجوهراتٍ هو من عطاياك. لكن...

قاطعها بنبرةٍ تفيض توترًا:

لكن ماذا يا كارمن؟ أتخشين أن يقال إنك ساعدت رجلاً مطاردًا؟

ليس في الشقة مكانٌ آمن ، وحق السماء لا تطلب مني أن أقابل أحد رجالك المزورين ليعد لك جوازًا جديدًا . هذا لعب بالنار ، وأنا لم أعد أحتمل لهيبها.

ضحك خوليو بسخريةٍ مرة:

لا تقلقي، جواز السفر معي منذ زمن ، أخفيته في طيات ثيابي كقلبي ، وأحافظ عليه كما أحافظ على حياتي . كل ما أطلبه مكانٌ أمينٌ ، أسبوعٌ فقط ، وبعدها... إلى أمريكا.

سألته بنبرةٍ فيها عتبٌ دفين:

وهناك تنساني ، أليس كذلك ؟ تنسى كارمن التي وهبتك شبابها ، وتخلّت عن كل من أحبّها لأجلك.

تجمّد صوته لحظة ، ثم قال وهو ينظر إليها نظرة رجلٍ أنهكه المكر والهرب:

كارمن... لن يتقدم لك أحد منذ زمن ، وأنا أعرف هذا جيدًا . لكن الفرصة لم تضِع بعد ، إذا ساعدتني هذه المرة فسيكون لنا مستقبل هناك ، في بلادٍ لا تعرف أسماءنا ولا ماضينا.

تطلعت إليه طويلًا ، كأنها تزن كلماته في ميزان القلب والعقل . في داخلها ، دار حوارٌ صامتٌ بين الحب والخوف.

هل تصدقه ؟ أم أنه يخدعها كما خدع العشرات من قبل ؟ هل الحب الذي تشعر به هو شفقةٌ متأخرة ، أم رغبةٌ في التشبث بوهمٍ اسمه الأمان ؟

قالت بصوتٍ خافتٍ كأنها تخاطب نفسها:

كم أنت بارع في الحديث يا خوليو... حتى أكاد أصدقك.

ثم رفعت رأسها فجأة وقالت بحزمٍ متعب:

ماذا تريد تحديدًا ؟ الزواج ؟

لِمَ لا ؟ لكن ليس الآن. زوجتي ستطلقني قريبًا ، وهذا ليس وقت الحديث عن العواطف ، الوقت وقت هروبٍ لا اعترافات.

ضحكت ضحكة قصيرة تخفي مرارتها:

الهارب لا يتزوج ، يا خوليو، بل يختفي.

اقترب منها، أمسك بيديها وقال بعينين تشعّان إغراءً ودهاءً:

دعينا لا نختلف الآن ، تذكّري فقط أموالي التي أرسلتها إلى أمريكا . يمكننا أن نعيش هناك حياةً جديدة ، بلا ماضٍ ولا خوف ، بشرطٍ واحد... أن تساعديني.

نظرت إليه طويلًا ، ثم قالت بعد ترددٍ أثقل من الصمت:

حتى أجد لك المكان الآمن ، لا تغادر المطبخ ولا تخلع ثياب الطباخة ، ولا تقترب من النوافذ. الضابط **لوزاريس** قد يعود في أي لحظة ، وهو لا ينسى وجوه الذين أفلتوا من قبضته.

وفي تلك اللحظة، مرّ بخاطرها مشهدٌ خاطف: وجه الضابط، ونظرته الثاقبة ، وذكاؤه الذي يخيفها أكثر من جرم خوليو ذاته. كانت تشعر بأن شيئًا ما سيتغير قريبًا... ربما ستخونه لتنجو ، أو تخون نفسها لتنقذه.

وهكذا، جلس خوليو في المطبخ كظلٍّ بين الأواني، بينما كانت كارمن في الصالة تُغنّي لنفسها بصوتٍ خافتٍ أغنيةً حزينةً عن الخيانة والحب والنجاة...

وكانت الرياح في الخارج تهمس كما لو كانت تعرف النهاية قبل أن تُكتب.

القبر الأبيض في بيت زيلا

بعد يومين من الهروب المحموم ، كانت كارمن قد اهتدت إلى الملاذ الذي سيؤوي صديقها الفارّ ، خوليو جاستوني ، خلال الأيام الخمسة الأخيرة قبل موعد فراره الكبير إلى أمريكا . بدت أكثر ثقة هذه المرة ، كأنها وجدت الخيط الأخير الذي سيربط مصيرها بمصيره ، أو ربما يقطع بينهما إلى الأبد . قالت له ، وهي تبتسم ابتسامةً يختلط فيها الأمل بالحذر:

إنه المكان الوحيد الذي لن تجرؤ الشرطة على الاقتراب منه ، بين يدي سيدة جميلة في الخامسة والثلاثين ، تعمل مثلنا في المهنة ، لكنها حذرة ، تمارسها في الخفاء ودون علم زوجها . وعدتها ببعض المجوهرات التي... سرقتها من زوجتك أثناء زيارتك الأخيرة لها.

رفع خوليو رأسه في غضبٍ حاد:

هراء! لم أسرق شيئًا ، أنت تعرفين أنني لم أفعل!

ابتسمت كارمن ابتسامةً باردة وقالت:

رأيت الصندوق بنفسك ، خوليو جاستوني. لا تحاول خداعي ، فأنا أعرفك أكثر مما تعرف نفسك . ومن أجل الحلم الكبير ، حلم الزواج والفرار إلى أمريكا ، اخترت لك هذا الملجأ ، بشرط أن تلتزم بما ستطلبه منك زميلتي.

حينئذٍ فقط ، أدرك خوليو أن طريق الخلاص لن يكون مفروشًا بالثقة ، بل بالمساومات والقيود . ومع ذلك ، لم يكن أمامه سوى أن يوافق ، إذ لم يعد لديه ما يخسره سوى حريته المؤجلة.

استقبلت **زيلا** الطباخة الجديدة بحفاوةٍ مصطنعة ، تخفي وراءها دهاء امرأة خبيرة بالوجوه والنوايا . كانت تدرك أن وجود خوليو في بيتها ليس مجرد مغامرة عابرة ، بل صفقة كبيرة يمكن أن تغيّر مصيرها إلى الأبد . وما إن خلع ثياب الطباخة التنكرية وارتدى ملابسه الأنيقة حتى لاح في عينيها شيء من الإعجاب الممزوج بالطمع ، تمامًا كما راق لها بريق الملايين التي قيل إنه يخبئها في مكانٍ ما.

لم يطل الوقت حتى صارحته زيلا بنيّتها:

لن أكتفي بإيوائك ، بل سأهرب معك أيضًا إلى أمريكا . هناك ، يمكننا أن نبدأ من جديد ، بعيدًا عن القوانين والوجوه القديمة.

نظر إليها مترددًا ، وقال بصوتٍ خافتٍ يشوبه القلق:

ولكن أين سأقيم في الأوقات التي يكون فيها زوجك في البيت؟

ابتسمت زيلا في مكرٍ وهي تقترب منه خطوةً بعد خطوة:

في بيتنا حمامان... أحدهما يستخدمه زوجي ، والآخر مغلق تمامًا لأن مواسيره وصماماته تالفة منذ زمن. سأجهزه لك بنفسي ، أضع لك فراشًا داخل حوض الاستحمام. هناك ستبقى مخفيًّا عن كل الأعين ، شريطة ألا يصدر عنك صوت ، لا سعال ، ولا عطاس ، ولا حتى همسة.

تراجع خوليو خطوة إلى الوراء ، وقد رسم الرعب ظلّه على وجهه:

أنام في حوض الاستحمام ؟ أشبه بالقبر!

قالت زيلا ببرودٍ يشبه صوت الحديد حين يُطرق:

نعم ، هو قبر مؤقت ، قبر أبيض من خزف ، لكنه يضمن لك الحياة.

تنهد خوليو وقال مستسلمًا:

لا مفر من الموافقة ، يبدو أني وُلدت لأدفن وأنا على قيد الحياة.

اقتربت زيلا أكثر ، كأنها تعقد معه ميثاقًا سريًّا بين الحياة والموت ، وقالت بنبرةٍ لا تخلو من التهديد الناعم:

بالمناسبة ، هذا الأمان له ثمن. ستكتب لي من الآن إيصال أمانة بنصف مليون دولار. لن أطالبك به في أمريكا ، إلا إذا غدرت بي أو حاولت الهرب وحدك . في المقابل ، سأؤمن لك طريق الدخول إلى ميناء ساو باولو ، وسأرافقك حتى تصعد السفينة . بعد ذلك، تكون حُرًّا من كل شيء... إلا منّي.

صمت خوليو طويلاً. بدت الكلمات في حلقه كأنها شظايا زجاج . لم يكن يعرف إن كانت زيلا تُغريه أم تهدده ، تحبه أم تبتزّه . ومع ذلك ، مدّ يده المرتجفة ووقّع على الورقة ، كمن يوقّع على اعترافٍ بالموت.

نظر إليها وسأل في صوتٍ خافت:

ما اسمها هذه السيدة التي وثقتِ بها إلى هذا الحدّ ؟

ابتسمت كارمن في هدوءٍ غامض، وقالت:

زيلا.

انقبض وجهه فجأة ، وبدت عليه علامات الذهول:

زيلا ؟ زوجة نائب مدير السجن ، خوزيه لوزاريس ؟

ضحكت كارمن ضحكة قصيرة ، فيها قدر من السخرية وقدر أكبر من المرارة:

هي بعينها . امرأة لا تعمل في المهنة التعسة إلا في الليالي التي يقضيها زوجها مناوبًا في السجن.

ارتسم على وجه خوليو ظلّ قلقٍ جديد ، أعمق من كل ما سبقه. كان يشعر أن القدر يسخر منه ، إذ يجد نفسه في بيت امرأةٍ متصلةٍ بالسجن الذي يهرب منه ، في حوض استحمامٍ يشبه قبرًا ، تحت سقفٍ تعيش فيه الخيانة والخداع كأنهما من طقوس الحياة اليومية.

في تلك الليلة، وبينما كانت زيلا تجهز له "قبره الأبيض" ، جلس خوليو في الظلّ يتأمل مصيره . في الخارج ، كانت المدينة تنام ، بينما في أعماقه كان ضجيجُ الخوف يعلو ، كأنه يسمع دقات الزمن تعدّ الأيام الخمسة الأخيرة من حريته المؤجلة.

تساءل في نفسه:

ما الحرية إن كانت ثمنها أن أعيش تحت الأرض وأنا حي ؟ وما الحبّ إن كان طريقه يبدأ بخداع وينتهي بخيانة ؟

كان يسمع في داخله صوتًا يشبه صدى الأعماق يقول:

"أحيانًا، يا خوليو ، يختبئ الإنسان في قبره ليهرب من نفسه ، لا من الشرطة "...

وما بين رنين الضحكة الباردة لزيلا، وصمت الحوض البارد الذي ينتظره، شعر خوليو أن العالم كله قد انكمش إلى تلك الغرفة الضيقة في الحمّام المعتم، حيث يختبر الإنسان معنى الخلاص عبر أشدّ أنواع الأسر قسوةً... الأسر في داخل ذاته.

الليلة التي كشفت وجه الخيانة

في الليلة الثانية ، كانت المدينة مبللة برطوبة ثقيلة كأنها أنفاس الخطيئة العالقة في هواء المنازل القديمة . عاد زوج زيلا، الضابط الذي أنهكه البحث عن النصاب الهارب ، يجرّ خلفه خيبات يوم طويل . كان العرق يتصبب من جبينه كأن جسده يفرغ آخر ما فيه من طاقة ، بينما في عينيه ظلّ التعب الممتزج بالشك ، ذلك الشك الذي لم يجرؤ بعد على النطق باسمه.

خلع سترته العسكرية الثقيلة ، ومضى نحو الحمام بخطوات متثاقلة ، يطلب غسلاً يطهّر جسده من الغبار والهموم . ما إن فتح صنبور الماء حتى انطلقت صرخة خافتة من فمه المرهق:

زيلا ! ماذا جرى ؟ لا ماء في الحنفيات ولا في الدوش ! كان صوته يحمل نبرة ضجر غريب ، كأنه يستنكر عطب العالم بأسره لا مجرد عطلٍ منزليٍّ بسيط.

أسرعت زيلا إلى باب الحمام ، ورفعت صوتها حتى يصل إلى الحمام الثاني في الطرف الآخر من الشقة، حيث يختبئ النصّاب الهارب - خوليو - في صمته المترقب.

أهذا معقول ؟! لعل العطل من بيت الجيران! قالت وهي تتصنّع الدهشة ، لكنها في داخلها كانت ترتجف من رعبٍ دفين ، خوف أن يكتشف زوجها الحقيقة الدفينة خلف جدار البلاط البارد.

خرج الضابط نصف عارٍ، ينظر حوله كمن يشكّ في كل شيء. ثم قال بصوت خافت متوتر:

لست أدري ، لكني أسمع صوت المياه في الحمام المغلق... تجمّدت زيلا لحظة ، ثم ابتسمت ابتسامة مصطنعة تحاول بها إخفاء ارتباكها ، وقالت محاولة السيطرة على الموقف:

لعله من المواسير القديمة ، ذلك الحمام لم نستعمله منذ زمن، أليس كذلك ؟

تراجع الزوج مستسلماً، وقد خدره الإرهاق ، فوافقها الرأي من غير أن يدقق في الأصوات. وما إن أغمض عينيه على فراشه حتى كانت زيلا تعدّ داخل الحمام المغلق فراشاً آخر - فراشاً وثيراً ومخفياً عن العيون - حيث ينام خوليو المتخفي، ضيفها الحبيب وخلاصها من حياةٍ تزداد ثقلاً.

مرت الليلة الأولى بسلام ، أو هكذا خُيِّل لها. كان قلب زيلا يخفق كعصفورٍ في قفص ، تخاف أن يسمع زوجها أنفاس الرجل الآخر، أو أن يلتقط همس الماء الذي يتسرب من الصنبور السري في الحمام . ومع أول خيوط الصباح ، نهض الضابط وخرج في جولة جديدة من البحث، تاركاً خلفه بيتاً يبدو هادئاً لكنه يغلي بالخداع.

وما إن أوصد الباب خلفه حتى أطلقت زيلا أنفاسها الطويلة ، وكأنها تحررت من قيودٍ خفية . لبست معطفها الفخم، ومضت إلى إدارة الهجرة بخطواتٍ مسرعة. في عقلها كانت الصورة واضحة: جواز سفر باسمها ، وتأشيرة دخول إلى أمريكا ، حيث تنتظرها حياة جديدة مع خوليو ، الرجل الذي وعدها بالسعادة والثروة . كانت تتخيله هناك في نيويورك ، يفتح لها باب شقة فاخرة تطل على النهر ، بعيداً عن كل ماضٍ يُذكّرها بالعار.

في تلك الأثناء، كان خوليو داخل الحمام الذي تحول إلى مخبأه السري . لم يعد يسمع سوى دقات قلبه ووقع خطوات زيلا وهي تغادر. كان يعرف أن عليه أن يبقى متخفياً حتى تتأكد الأمور . نظر إلى الجدران المتشققة وإلى الأنابيب الصدئة ، وتسللت إلى ذهنه فكرة لمعت في رأسه كنجمة بعيدة:

ماذا لو أصلحت المواسير بنفسي ؟ إنني سأحتاج الماء عاجلاً أو آجلاً ، وخاصة إن عاد الزوج فجأة وبقي يوماً كاملاً في البيت.

كانت تلك لحظة من غرور المجرم الذي يثق في قدرته على التلاعب بالقدر كما تلاعب بالبنوك والأموال . نهض من مكانه ، وراح يفتش بين الأدوات القديمة خلف الصناديق ، عثر على مفتاح صنبور صدئ ، وعلى بعض المسامير القديمة ، فابتسم لنفسه بسخرية وقال بصوتٍ خافت:

كنت مصرفياً يوماً ما ، واليوم صرت سبّاكاً ! كم هي غريبة هذه الدنيا...

بدأ العمل بحذر ، يفتح الصمامات ويعيد تركيب المواسير ، كأنّه يحاول إعادة بناء حياته من جديد . كانت يداه تتحركان بثقة ، بينما عقله ينسج خطط المستقبل مع زيلا في بلاد الحرية والثروة . لكن مع كل صوتٍ معدنيٍّ يتردد في الحمام ، كان القدر يخطّ بهدوءٍ مصيره القادم ، وكأن كل ضربة مفتاحٍ على الصنبور هي دقّة في نعش الخديعة.

في الخارج، كانت زيلا تنتظر في طابور الهجرة ، بين وجوهٍ مجهولة وأحلامٍ متشابهة . فكرت للحظة في زوجها ، وتسللت إلى نفسها غصة غريبة . أكان يستحق ما تفعله به ؟ أم أن حياتها معه كانت سلسلةً من الخيبات والقيود ؟ لكنها سرعان ما طردت تلك الفكرة كمن يطرد شبحاً، وقالت لنفسها:

لا وقت للعواطف الآن ، أنا أستحق الحياة التي حلمت بها...

وفي تلك اللحظة نفسها ، كان الماء يتفجر فجأة من أنبوبٍ صدئٍ داخل الحمام المغلق ، ليغرق أرضيته بالماء. سمع الجيران صوت خريرٍ غريب ، وصراخ خافت كأنه يأتي من باطن الأرض. وحين عاد الضابط في المساء، كان الباب مغلقاً من الداخل، والماء يتسرب تحت العتبة. طرق الباب، ثم كسره بعنفٍ وهو ينادي باسم زوجته . لم يجدها. لم يجد سوى الحمام ، والأنابيب المهشّمة، ورائحة الرطوبة الثقيلة... ولا أثر لخولة أو خوليو ، سوى جواز سفرٍ ناقص الصورة، وأثر جسدٍ غريب في الفراش المخفي.

جلس الرجل وسط الفوضى ، والماء ينساب حول قدميه، وأدرك أن كل ما حوله لم يكن سوى وهمٍ جميل صنعته يد الخيانة . رفع رأسه نحو المراية المشروخة فرأى وجهه المنهك يتكسر في انعكاساتٍ كثيرة ، كأن كل كسرةٍ منها تقول له:

"من يملك العالم ولا يملك قلبه ، يعيش خالداً في الخوف ، لا في المجد".

ثلاثة أبوابٍ على ماءٍ مكسور

في هذه القطعة نعيد تشكيل حدثٍ بسيطٍ — صوت ماءٍ وخوفٍ ودخيلٌ مختبئ — ليصبح مسرحًا لتحولات نفسية واجتماعية ، وحوارًا بين الذات والآخر ، وبين الخفاء والفضيحة . نحاول هنا أن نمزج بين الأسلوب القصصي والقراءة التحليلية : نغوص في تيار وعي الشخصيات ، نفعل الحوار الداخلي والخارجي، ونربط بين التفاصيل الصغيرة والتداعيات التاريخية الكبرى على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع.

زيلا حاولت أن تسيطر على الرعب الذي اجتاحها ، لكن صوت الماء ، ومن ورائه احتمالٌ لا يرحم، حرّكَ كل شيءٍ في داخلها: ذاكرةٌ قديمة ، ذنبٌ مُخفي، وخوفٌ من أن ينهار البناء الهش للعلاقة التي بنتها بعناية . همست بصوتٍ خافت ، كما لو كانت تخاطب ذاتها أو تقاوم واقعا لا يُصدق:

» أهذا معقول؟ الحمام المغلق تالف منذ أكثر من أربع سنوات«...

تجاوبها زوجها ، صوته ممتلئٌ بعقلانيةٍ متوترةٍ لا تخفيها كلمات الخوف:

« أسمع بوضوح صوت الماء من خلال الجدار الفاصل. أخشى أن يكون قد حدث انفجار في المواسير . سأرتدي ثيابي ثم أفحص مواسير ذلك الحمام. من يدري؟ لعلنا نفلح في استخدامه بعد كل هذه السنوات«.

كانت محاولة زيلا أن تستهلك اللحظة ، أن تمنع الانهيار ؛ بابتسامةٍ مداعبة سحبته نحو المخدع ، نحو روتينٍ يُعيدها إلى حالتها الطبيعية . لكن الضحك خانقٌ ، والفأر الذي لعب في عب الزوج — صورةٌ صغيرةٌ لذعرٍ أكبر — أعاد إلى السطح ما لم يجرؤوا على قوله:

يس صوت ماءٍ فقط، بل سعالُ رجلٍ.

في منتصف الليل، حين نامت زوجته ، وقفتْ أمام ثقب المفتاح، تدرك أن وجود وافدٍ في دارهم ليس مجرد حدثٍ عرضي. تساءل في نفسه:

« ترى من يكون هذا الرجل؟ لم أره جيدًا من ثقب المفتاح. لماذا تخفي زيلا أمره عني ؟ »

دقائق وساعات من التفكير والتحسس والمراقبة من خلف الباب كشفت له ما يكفي: خوليو جاستوني ليس مجرد مارقٍ عابر ، بل ملاذٌ اختاره هاربًا من العدالة . ولم تعد المسألة مجرد غموض ؛ بل فضيحة محتمَلة وتهديدٌ لكرامته ومكانته.

التفكير ينساب بسرعةٍ مخيفة:

«إنني لا أستطيع القبض عليه في بيتي وإلا كانت الفضيحة بجلاجل. ماذا أقول للقضاة ؟ إنه كان في بيتي بموافقة زوجتي لأربعة أيام ؟ إنه دون شك يعد للفرار . هل تساعده زيلا ؟ تساعده ، بل تدبر للفرار معه ، ربما استخرجت جواز سفر ، وربما حصلت على تأشيرةٍ إلى أمريكا.»

هكذا يُعيد العقل كتابة السيناريوهات ، يختلق دلائل ويربط نقاطًا لم تكن سوى ظلالٍ في البداية.

في سريةٍ شديدةٍ تحرّى عن الإجراءات في إدارة الهجرة ؛ العقلُ العسكريُّ في داخله لم يهدأ. لا مفرّ - قرر - من القبض عليه قبل أن يهرب مع زيلا . وحسابُها سيكون عسيرًا ، ولكن بعيدًا عن الفضائح ؛ هكذا يريد أن يحافظ على ما تبقى من شرفٍ، إن وُجدَ.

حين حان وقت الفرار ، كانت الأمور محسوبة ومرتبة: الضابط محدّقٌ ، يترصّد الهاربين قرب البيت. في الثامنة مساءً خرجت زيلا ، تحمل حقيبة ثياب مناسبة ، تستقل سيارة أجرة متجهة إلى الميناء . بعد لحظات، خرج خوليو جاستوني بسرعة مذهلة ، لحق بها داخل التاكسي وقال للسائق:

« إلى البوابة رقم 2 في ميناء ساو باولو«.

قبل ميل من البوابة ، أوقف السائق السيارة. الدنيا مخنوقة، والهواء يطبُق بابتسارٍ على كل واحدٍ منهم . أخرج شخصٌ مُقنعٌ مسدسه وأطاحَ به في وجه الراكبين ، ثم كشف عن هويته للزوج:

« غادري التاكسي يا زيلا ، لا تعترضي فإني على علمٍ بكل شيء«.

لحظة شديدة الاختناق. ردود الفعل لا تأتي إلا كبقايا كلماتٍ تتقاذفها الأقدار: قالت زيلا ببراءةٍ تبدو مزيفة:

" زوجي خوزيه؟»

في محاولةٍ أخيرةٍ للتماسك. أما خوليو فحاول أن يلجأ إلى سلاحه القديم ـــ الرشوة ـــ علّه يشتري لنفسه انزياحًا عن المصير:

» سيدي، معي مجموعات ثمينة لا يقل ثمنها عن نصف مليون بيزوس. خذها ودعني أغادر ساو باولو«.

ردّت زيلا بوضوحٍ قاتل:

« وأنا معه.»

الجملة أقضّت مضاجع الضابط . قال بصوتٍ قاسٍ:

« زيلا، لا تضطرينني إلى إلقاء القبض عليكِ وتحمل النتائج. غادري التاكسي«.

غادرت، مكسورةً ومقهورة ؛ المغادرة لم تكن مجرد ابتعادٍ مكاني ، بل إنها خروج من ضمن مسارٍ كان يُعيد ترتيب وجودها بين الخيانة والولاء ، بين الخوف والرغبة في الخلاص.

ثم التفت الضابط إلى النصاب الأكبر ، وابتسم ابتسامةً لا تعلن سوى نهاية لعبة:

«والآن، سنتجه معًا إلى سجن جوبروفينا . إذا اعترضت أو حاولت المقاومة، سأطلق عليك النار.»

ضحك خوليو ، لكن ضحكه كان مريرًا، مختلطًا بالهزيمة وقليلٍ من الكبرياء:

»سجين حي أفضل من مليونير ميت. لقد لعبت بمهارة، لكني خسرت في نهاية الأمر. ترى، هل سأجد في زنزانتي الصحبَ القديمين ماستاس وأرناز؟«

في هذه الجملة يختزل النصاب عالمًا كاملاً: الحياةُ مقابل الحرية، المالُ مقابل الخوف ، والذاكرةُ التي تلاحقه حتى في زنزانته القادمة . هو

لا يائس فقط؛ هو مُجرّبُ الأدوار إلى آخرها ، يحوّل الهزيمة إلى أمة سردية يرويها لنفسه كي لا ينهار.

النص يكشف تناقضاتٍ عدة: الأول بين الرغبة في الحفاظ على صورةٍ اجتماعية وبين طموحٍ شخصي قد يدفع إلى الخطيئة ؛ الثاني بين المعرفة والجهل - كيف أن ثقب المفتاح يكفي لإشعال سردٍ كامل من الاحتمالات . كما يُبرز النص البُعد السياسي الاجتماعي: الخوف من الفضيحة كمحرّكٍ للسلوك ، وضرورة النظام (الضابط، القانون) كقوةٍ تطفئ الفوضى الخاصة. في الوقت ذاته ، هناك نقدٌ ضمني للأنساق الاقتصادية - السفر إلى أمريكا، المال، والهروب - كرمزٍ للهروب من تبعات التاريخ الشخصي.

هذه الحكاية ليست مجرد حادثة عن خيانةٍ وخلاصٍ ؛ إنها مشهدٌ مصغر لصراع أعمق داخل النفس والمجتمع: كيف يصنع الخوفُ حكاياتٍ من لا شيء ؟ كيف تتحول التفاصيل الصغيرة إلى مآلات؟ وما قيمةُ الحرية حين تُقاس بثمنٍ على شكل جواز سفر أو محبس؟ النصُ هنا يقدّم دعوةً للصمت التأمليّ أكثر من الحكم الفوري: لنسأ مُساحات الخوف ، ونقرأ فيها ما يخبئه الإنسانٍ من رغباتٍ وندوبٍ ، فكل جدارٍ بين زوجين يمكن أن يصبح بوابةً لصوتٍ آخر — لصوتٍ يغيّر مجرى التاريخ الصغير لحياةٍ بأكملها.

هكذا كانت نهاية ملياردير خان وطنه و مجتمعه ، و تسبب في تشريد الأبرياء ،

و هكذا كانت نهاية خيانة العاهرات شرفهن ابتزاز المال من الأغنياء ، حياة الحياة الزوجية .